أثر الرحلة
في الحياة العلمية والأدبية

للأستاذ محمد الخضر حسين

يكثر الراحلون من بلاد إلى أخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والأدب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع .

ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لأضعها أمام نشئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر إلى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباءً .

الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا اليها راميا إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يمد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو

والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الامة قوة ويكون له أثر في نجاحها ، والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطيارات .

ومن هذه الأغراض ، أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، ويلحق بأحوال الأمم الماضية ، أحوال الأمم الحاضرة ، متى كان في النظر اليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض ، الرحلة من دار الضلال والبغي إلى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغوابة فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثرون عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة الى الحق والاصلاح بقدر ما يجد في حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة الى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفه ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من أمم مختلفة الأجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحله لأمثال هذه الاغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر ابن عبدالله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن أنيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار الى الشام فسمع الحديث من عبد الله وقفل راجعاً الى المدينة .

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لا أريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكفيامه على أسرة اذا فارقها وقعت في حاجة ونكد من العيش ، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لان فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط أولئك الذين ينشأون في ترف وانحلال عزيمه فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله ، عزم الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أتي ضربت فيه بالعصا فانفلقْ
ما إن رأت عيني أمواجه في فرق إلا تناهى الفرقْ

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلاقي من مرافقهم أو معاشرتهم ما لا يليق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبير إذ قال :

لا تغترب عن وطنٍ واذكر تصاريفَ النوى
أما ترى الغصنَ إذا ما فارق الأصلَ ذوى

وأشار يحيى بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة . فقال :

فصمصام عمرو حين فارق كفه رموه ولا ذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ومن مكنّ سادت لؤي بن غالب

وتألم الرحالة ابن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه بعضهم باسم المغربي فقال :

وأنادى مغربياً ليتني لم أكن للغرب يوماً أنسبُ
نسب يشرك فيه خامل ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جد له شهرة أو ليس يدرى لي أب

وعلاج أمثال هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على احتمال المكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية عامة أو خاصة ، فاذا وثقت نفسه بنيل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها كل صعب واستهانت بكل خطر ، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق :

وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسر من همتك

وعزم المأمون الخروج إلى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت اليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

لما خرجت .

وأذكر أن أبا بكر بن العربي الأندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في العراق وقال : لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني ، على أن ابن العربي قد لقي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر(١)

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيذة باقية ، وأن تلك الآلام

(١) انظر كتاب القواصم والعواصم له .

النفسية والمتاعب البدنية زائلة ، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الأندلس إلى الشرق بعد أوبته :

كأن لم يكن بينٌ ولم تك فرقةٌ إذا كان من بعد الفراق تلاقِ
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزاهر ساق

وجاء في كتب الأدب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تثبيطهم عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا فقلت إلى ذاك المقام أطوفُ

وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبورُ

وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له أنه لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر ابن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي كم ذا تحاول نسلاً عند عنين
وأين يعدل عن عرجاء قرطبةٍ من شاء يظفر بالدنيا وبالدين

وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده أنه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان .

وترى من الأدباء من يمتلىء قلبه حباً لوطنه ولكنه يتغلب على هذه العاطفة ويذكر الداعي إلى الرحلة فتطمئن اليها نفسه كما قال ابن سعيد لما خرج من حدود افريقية :

رفيقيّ جاوزنا حدود مواطنٍ صحبنا بها الأيام طلقا محياها
وما ان تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوماً بلقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والادباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الاوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الاهمية بمكان يدعو الى أن نعد في مقدمة وسائل الرقي والتهذيب .

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أنفس ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان الا بالرحلة ، والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وانما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من أكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ ابن عساكر وأبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولابن خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : ان الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم، وختمه بقوله فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر اذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الأمور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم العرجي : « فاني وان كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر » .

والرحلة أثر في تهذيب الطباع ورقي الآداب ذلك ان كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربة في معشرٍ تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجالاً ذوي آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن وهب رحل من مصر وتلقن العلم بالمدينة عن الامام مالك ، وقال : « تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه » ، واقام يحيى بن يحيى بن بكير عند مالك بعد أن فرغ من سماع الحديث عنه وقال : « إنما أقمت لأستفيد من شمائله » .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن أنظاره الواسعة فيرحل الى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته ، ولو لا الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الاقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمي وتوجه الى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد ابن كج بلغ في العلم مرتبة كبيرة ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد وأنا حطتني الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي همم ستقذف بي بلاداً نأت إما العراق أو الشآما

لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطلح أووادي الخزامى
وكيما تعلم الفصحاء أني ... خطيب علّم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرض ... بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة : رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب رحلته فقال :

سلامٌ على بغدادَ في كل موطنٍ ... وحق لها مني السلام المضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها ... واني بشطي جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعفُ

وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

فقد سرت في شرق البلاد وغربها ... وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألذ ما يتمتع الانسان به في هذه الحياة ، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علمـــاء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ، وأذكر من قصيدة بعث بها اليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بعيشك خبرني ولا زلت مفضلاً ... أعندك من شوق كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ ابن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :

أنسيت ثدي مودةٍ يبـــني وبينك وارتضاعه

ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها ، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوه من العلوم والفنون ، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود ، وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله اليهم من ثمرات أفكارهم .

ماذا تستفيد البلاد ممن يرحلون اليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا اليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حمويه السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكيّ بن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البرر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر ابن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الامام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأسدية ، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف اليها مسائل أخرى وصارت تسمى المدونة ، وهي المشار اليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علمٌ بلا أدب ومن له أدبٌ عارٍ عن الدينِ
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون

وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة خيره من الشعر قوله :

وهان على سراة بني لؤيّ حريق بالبويرة مستطيرُ

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد ابن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقائها بين يدي ملك أو وزير أو وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل الى منجاتها درسا

فان صاحبها أبا عبدالله بن الأبار الراحل من الأندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق إلى الوطن أو الأهل والاخوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق إلى دمشق وهو ببلاد الروم :

بعاد يزيد الجوى والحنينا وبينٌ يعلم قلبي الأنينا
فراقٌ أذاب الحشا أدمعاً فأجرى بصافي الدماء العيونا

إلى أن قال :

وجاد الحيا أربعاً بالشآم وسلم صحباً بها قاطنينا
رحلنا فما تابعتنا القلوب وسرنا فظلت لديكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبا حاجب كان قد سافر إلى إيطاليا وبعث برسمه إلى بعض أصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين :

لما شكت شط النوى روحي التي أبقيتها عند الأحبة بالوطن
أرسلت تخالي لها بوّا (١) عسى كلو فلا تبغي التحافاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد إلى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى .

وقد نبهنا على ان الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ، وهذه الصداقات تمد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة إلى البلاد الأجنبية .

أدب الرحلة

الآداب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون إلى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة ، فيؤكد عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، فقال بعضهم : يا غريباً كن أديباً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الأندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

اودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني والله أشتاق إلى طلعتك

(١) البو : جلد الموار يحشى تماماً او تبناً فيقرب من ام الفصيل فتعطف عليه ، فتدره

وقال :

فليس يدرى أصل ذي غربة وإنما تعرف من شيمتك

ونبهه لآداب سامية فقال :

وامش الهوينا مظهراً عفة وابغ رضا الاعين عن هيئتك
وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجادل حاسداً أبداً فانه أدعى إلى هيبتك

وقال :

وانطق بحيث المي مستقبح واصمت بحيث الخير في سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ، ويغتبط بما يلاقيه بها أهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين ابن حمويه السرخسي بلاد المغرب ، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن قائلاً : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال السرخسي : « بلادكم حسنة أنيقة ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان : ما هو ؟ قال : إنها تنسي الأوطان » .

وممن قاموا على هذا الأدب الجميل العلامة المقري صاحب كتاب نفح الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها بأشعار ، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي :

إذا ذكرت بقاع الأرض يوماً فقل سقياً لخلق ثم رعيا
وقل في وصفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عندما نزلت دمشق ، واني لست بشاعر ولكني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلاماً موزوناً ، وإلى حضراتكم هذه الأبيات :

زارها بعد نوى طال مداها فشفا قلباً يجداً في هواها
راح نشوان ولا راح سوى أن رأى الشام وحياه شذاها
نظرة في ساحها تذكره كيف كان العيش يحلو في رباها
ما شكا فيها اغتراباً وإذا حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من بحث العيس في البيد إلى ... بردى يحمد للعيس سراها
فهنا قامت نوادي فتية ... تبلغ النفس بلقياهم منـاها
أدبٌ زهو كزهر بهج ... أرشفته السحب من خمر نداها
خلقٌ لو نصح الخلود به ... ناصحٌ لاتخذت منه حلاها
ملأوا جلق أنساً فأرى ... ليلها طلق المحيا كضحاها
شدّ ما لاقوا خطوباً فانتضوا ... مرهفات العزم طعناً في لهاها

* * *

عزة الأمة في نشء إذا ... نشئت في خطر كانوا فداها
وجناحاً فوزها استمساكها ... بهدى الله وإرهـاف قناها
هي عينٌ والهدى إنسانهـا ... فاذا ما فسقت لاقت عمـاها

* * *

رتّل الذكر مليّاً تره ... يغرس الحكمة أو يدني جناها
أطلق الأفكار من أصفادها ... فمضت ترعى الثريا وسهاها
خض علوم الكون أحقاباً وسر ... في سماها إن تشأ أو في ثراها
لا ترى في الدين إلا مُغرياً ... بحلاها أو مُزيحاً لقذاها

* * *

ذكّرونا سلفاً قاموا على ... سيرة غراء والدهر طواها
أمةٌ يذكي التقى غيرتها ... مثلما يذكي الندى نار قراها
شرفٌ لو آنسته الشمس في ... أفقه الأعلى لظنته أباها

* * *

أو بجدي مجد أسلاف إذا ... غرقت أجفان خلف في كراها
أمةٌ تلهو بذكرى تالدٍ ... عن طريفٍ لم ترم عهد صباها

* * *

فابعثوها همماً تسمو كما ... سمت الجوزاء تزهو في سناها
ما الفخار الحق إلا نهضةٌ ... أحكم الايمان والعلم عراها

دمشق: آب سنة ١٩٣٦